القراءة الكونية التوحيدية -

أ/ لحلح الزهرة
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة -

ورد الأمر الإلهي الحكيم، بضرورة الجمع بين قراءتين واضحتي المعالم والوجهة، وخلالها نحت هذه الضرورة صوب ذلك الكائن البشري أو الإنسان، تكليفا وتهيئا له, لتحصيل معرفة حضارية متكاملة المنهج والأهداف, بغية النهوض بمهمة الاستخلاف والقيام بمقتضيات العمران الحضارية، والوصول إلى تحصيل أسمى المعارف وأعلاها، وهي معرفة الله (عزوجل) وتوحيده بمقتضى القراءتين السابقتين .

أولاهما : وهي قراءة الوحي المنزل[1] قال تعالى: ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ))[2] .

أما القراءة الثانية : فهي قراءة كونية تستوعب آثار الخلق والإبداع في الكون الفسيح، لاستجلاء الظواهر الكونية ومنطوقات القدرة والكمال، المسخرة للقدرات الذهنية البشرية، التي تفعل في تلك المنطوقات فهما واستدلالا, من شأنه الوصول إلى تحديد معالم حضارية دينية أخلاقية، ينبغي أن تستقي صياغتها المعرفية والمنهجية، من الاستغراق الثنائي في القراءتين، وهو الأمر الذي من شأنه الإبقاء على سلامة ومتانة علاقة الأمة بخالقها إثباتا وتوحيدا، وكذا حماية العقل الإنساني من مزالق التجريدات الفلسفية التي أطلقت العنان لكائنات افتراضية ميتافيزقية (ما ورائية)، تفعل في الكون إيجادا وتأثيرا، لتسلب الإله كل معاني الخلق والتدبير بمسمى الإرادة السلبية[3] المفيضة حينا، وبمسمى

---

[1] – طه جابر العلواني، الجمع بين القراءتين، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة – مصر، ط 01 ، 1417 هـ – 1969م.)، ص ص 10، 11.

2 – الجمعة ، آية : (2).

3 – اعتمد افلوطين (PLOTIN) أسلوب الفيض لتفسير صدور الموجودات عن الواحد، دون أن يمس ذلك الصدور بوحدته، أو يدخل عليه معنى الكثرة، وهذا عن طريق الفعل الإلهي الذي يتم تلقائيا بمعزل عن الإرادة الإلهية، ودون أن يكون هذا الفيض تابعا لوعي فكري أومتعلق بمسمى الخلق, لاحتمال انصراف الذهن إلى متعلقات الحركة والجهد والإرادة الايجابية، وهذا لأن إله أفلوطين حرا بالمعنى السلبي أي بالسكون المطلق. أفلوطين، التساعية الرابعة، دراسة وترجمة : فؤاد زكريا، (الهيئة المصرية العامة، د.م، د.ط، 1389 هـ –1970م.)، ص 331.

المثل الخيرة، التي استودع بها أفلاطون (PLATON)[1] كل الحقائق المطلقة، وهي أشبه ماتكون بالبديل الفلسفي للفعل والإرادة الإلهتين, بوصفها المنوال الذي تنسج على شاكلته صور العالم المادي.

لكن هل هذه القراءة الكونية تحمل معاني عديدة أم أنها واحدة في مضمونها ومنهجها؟.

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي توضيح المقصد من فعل القراءة وهو المعرفة والفهم، مما يحيلها إلى دائرة النشاطات الإنسانية المتعلقة بالعقل وتعامله مع الكون فهما وتدبرا وهي ثلاثة أنواع:

1- قراءة كونية علمية : وهي التي تعتمد على طرح الفرضيات واختبار صحتها بطريق التجارب لتفسير علاقة العلل بالمعلولات [2] في إطار الإجابة عن تساؤلات فاعلة في المعرفة الكونية والقراءة العلمية، وهي إن كانت دقيقة وجزئية على مستوى الطرح والمعالجة، إلا أنها تبقى قاصرة عن تحقيق المعرفة اليقينية الإيمانية, لعدم استيعابها لكثير من الأسئلة التي يقتضي تحصيل اليقين بها، نوعا من الأيديولوجية المتجاوزة عالم الفرضية والتجربة، كما أنه بإمكانها الإجابة عن المسائل المتعلقة بالأمور الجزئية، أما القضايا الكلية المتعلقة بمبدأ

---

1 - فيلسوف يوناني ولد سنة (428 ق.م) اسمه الأصلي أرسطو قلس (ARISTOCLES)، من مؤلفاته " بروتاغوراس والجمهورية. ابن النديم، الفهرست، تعليق: إبراهيم رمضان`(دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط1، 415 هـ، 1994م.)، ص 17 ، وعبد الرحمان بداوي، موسوعة الفلسفة ، (المؤسسة العربية والدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط1 ، 1984م.) جزء 1، ص ص 153-158، مادة : (أفلاطون).

2 - العلة في اصطلاح العلماء هي : ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجا مؤثرا فيه، وعلة الشيء هي ما يتوقف عليه ذلك الشيء. الجرجاني، التعريفات، تحقيق : عبد المنعم الحنفي، (دار الرشاد، القاهرة – مصر، د.ط، د.ت)، ص 176، مادة: (العلة.)

الكون و مآله وتحديد صلته بخالقه، فهذا ما تقف أمامه قاصرة لتطلبه وعاء معرفي مغاير تماما.[1]

2- قراءة كونية فلسفية : وهي قراءة تؤثر في نمط التعامل الإنساني مع الكون بتعيين مواضيع تفكيره ونظرته إلى الكون وفق صيغة فلسفية، يغلب على نتائجها الجزم واليقين بعكس الرؤية العلمية، وهذا لاعتمادها جملة من الخطوات أقرب ما تكون إلى المعرفة اليقينية بغض النظر عن مرجعها أو صحتها: كالبرهان والاستدلال وهي من شأنها أن تعطي صورة عامة عن الكون وعلاقته بالقوى الميتافيزيقية، لكنها في الآن ذاته تبقى قاصرة، عن تقديم يقين معرفي يمكن أن يؤسس لإيمانيات قطعية[2]كالصفات الإلهية الذاتية أو الفعلية، الناطقة بوحدة الوجود الإلهي وتابعية الكون له.

والمتتبع لتاريخ الفكر الإسلامي يلمح قصور هذه الرؤية في هذا الجانب، خاصة إذا ما تم تلقيح هذا الفكر بتجريدات العقل اليوناني، إذ تنقل النصوص عن هشام بن الحكم[3] أنه كان يرى بأن الوجود جسم مادي رقيق شفاف، والله تعالى جسم ولولا جسميته لما أمكن للأجسام الموجودة أن تكون

---

1 - مركز إعلام الذكرى الرابعة للاتصال الثورة الإسلامية في إيران، الرؤية التوحيدية الكونية، ص ص10-12 وأنظر موقع الكتروني : http:/www.shrook1.com الثلاثاء 2009/4/7 الساعة العاشرة.

2 - مركز ...، الرؤية ...، ص ص 16، 17

3 - هشام بن الحكم الشيباني الكوفي (.. — 190 هـ = .. 805 م) متكلم مناظر كان شيخ الإمامية في وقته ولد بالكوفة ونشأ بواسط وسكان ببغداد، له من الكتب (الإمامة) و (القدر) عاش إلى خليفة المأمون . الزركلي، الأعلام(دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط 9، ماي 1986 م)، جزء 8 ص 85، مادة : (هشام ابن الحكم).

دالة عليه [1] والرجل في هذا يكون متأثرا بالرواقية اليونانية، التي ترى بأنه مامن موجود إلا وهو جسم ومادة، والجسم عندهم هو المحسوس المتحيز المركب من أجزاء المادة، والعالم كالحيوان جسده هو هذا المحسوس وروحه العقل أول المخلوقات الكونية المفارقة للجسمية، والعقل الكوني عندهم إله تسري أفعاله في الموجودات إيجادا وعدما. [2]

هكذا تبدو كل من القراءتين الكونيتين العلمية والفلسفية عاجزتين عن تقديم معرفة يقينية الأسس والمرجع، بحيث يمكن الاعتماد عليها في إعطاء الإنسان رؤية كونية صالحة، لتأسيس قاعدة إيمانية في معرفة الكون وربطه بصفات خالقه وتوحيده، من حيث إرتباط القراءة الكونية العلمية بعنصر التجربة المختبرية، الذي يمهد السبيل لسيطرة الإنسان على نواميس الطبيعة، وإنماء التصنيع والحضارة التكنولوجية، وهذا يعني أنها تمنح الكائن البشري القدرة على التغيير والتصرف، بحكم قيمتها العملية والفنية الغير ثابتة والخالدة، لأنها معطيات تقوم أساسا على مقدمات تفضي إلى إجابات جزئية، أما القراءة الكونية الفلسفية فهي قد تعطي الحياة معنى إيجابيا فاعلا في ضمير الإنسان والأمة بشكل عام، وقد تهوي به في ساحات العبث والضياع لاستنادها إلى منظومة فكرية دخيلة في تصوراتها وسلبيات تعاملها، مع قضايا الإله والكون والإنسان ...

---

1 - أنظر ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم زعتر، عبد الرحمان عميرة(مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، السعودية ، ط1، 1402 ه، - 1982م) جزء 5 ص ص 194- 221 ، وأنظر على السامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، (دار المعارف، القاهرة- مصر، ط 8، 1388 هـ - 1968 م) جزء 2، ص 185.

2 - عصام الدين محمد علي صحوة العقل مع تاريخ المذاهب الفلسفية، (الاسكندرية – مصر، منشأة معارف، د.ط، د.ت)، ص 101.

ولذا فقد أفرز التعامل اللاواعي مع الفكر اليوناني الفلسفي غفلة وتيه حضارى خدر العقل المسلم وسحبه إلى مجالات السفسطة الغيبية العقدية، فكان أن استنزفت كل قواه في جدالات عقيمة، حادت به عن المقصد الوظيفي الحضاري من خلافة الإنسان على الأرض وهذا كله يسلب الأمة مقومات الإيجابية الاستخلافية الحضارية[1]

3- قراءة كونية دينية: وهي المعرفة الدينية للكون المسؤولة عن تأسيس إيمانيات يقينية المبدأ والحقائق، فهي تمثل جذور منهجية فكر الأمة الإسلامية التي تحدد فهم الأمة لذاتها، ومعنى وغاية وجودها [2] وعلاقاتها بالكون وخالقه، ضمن صياغة عقدية تضج بالفاعلية الحضارية ، وليس هذا إلا لأنها تتمتع بمزايا تفوق القراءتين السابقتين.

غير أنه بإمكاننا القول أن القراءة الكونية الدينية هي نوع من أنواع الرؤية الكونية الفلسفية، إذا ما اعتبرنا أن آية نظرية كلية، أو وجهة نظر شاملة حول الكون والوجود رؤية فلسفية، بغض النظر عن مبدأ تلك القراءة الكونية سواء كانت قياس، أو برهان، أو وحي منزل، وبذلك فإن كل من القراءتين الفلسفية والدينية ذات مستوى وظيفي واحد، خاصة إذا علمنا أن الدين الإسلامي بكل معطياته اليقينية هي محمية من جهتي العقل والمنطق، او بعبارة أخرى هو اعتماده على الطرق الاستدلالية العقلية، لعرض ومناقشة مواضيعه، فهي إذا قراءة منطقية يدفع فيها تعارض العقل والنقل، وتقصى منها المسلمات القهرية

---

[1] - عبد الحميد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، (د.م، د.ط، 1429 هـ - 1800 م)، ص 30، وأنظر مركز ....، الرؤية ....، ص ص 16، 17.

2 - أبو سليمان المرجع نفسه. ص 20.

المضمرة لكل أنواع العجز.[1] المؤسس على مشاعر الرهبة وطقوس الخرافة والتجريدات العقلية السلبية.

فحينما تسعى الرؤية الكونية الدينية إلى تأسيس إيمانيات فهي تنشد اليقين وترفض الظن لأنه لا يغني من الحق شيئا ولا يؤسس عليه حكم صحيح، ولذا فقد أنكر الذكر الحكيم على أصحاب الظن قائلا : ((وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)).[2]

والمقصد اليقيني في القراءة الدينية الكونية، يرتجى منه اجتثاث دابر العبث من مضمون الحياة البشرية، وربطها بمبدأ ديني قيمي يعد محور توجهات البشرية ، والقوة الدافعة العقدية، التي تذكي في نفوسهم جدوة العمل والأمل المستمرين، والمتعلقين بمآل غيبي يعد في ذاته المحفز والمراقب لنوعية أعمالها وهو الأمر الذي من شأنه تحقيق الذات الإسلامية المعرفية بأبعادها الفردية والاجتماعية.

هذا بالإضافة إلى أن اصطباغ القراءة الكونية الدينية بعنصر القداسة[3] له أثر كبير في توفير مشاعر الاحترام والانقياد، طالما أنها تستفيد أطرها المعرفية من لدن عليم خبير يفوق علمه علم مخلوقاته، فإذا ما سرت تلك القداسة في وجدان الشعوب أنمت فيهم روح الطاعة وولدت بهم إيجابية تتوج برغبة التضحية وتجاوز الذات في سبيل أهداف الأمة والإبقاء على فن صنع الحياة

---

1 - مركز ....، الرؤية ....، ص ص 18، 19

2 - الجاثية، آية : (31-32).

3 - المركز ....، المرجع السابق، ص 18

فيها، وهنا تتلاشى مركزية الذات المعيقة لكل إيجابية حضارية، [1] تفكك معنى المسؤولية إلى عناصر أخلاقية قبل أن تكون دينية، طالما أنها أمة الجسد الواحد بكل أعضائها المتكافلة.

ثم إن كل هذه الميزات المعيارية لا تتوفر إلا في القراءة الكونية الدينية التوحيدية, أي القائمة على عنصر التوحيد، وهذا يعني أنها قراءة في جوهرها رؤية توحيدية إلى الكون من خلال اطراد نظامه وإبداعه، وهي نتيجة لازمة لتوحيد خالقه الذي أشار إلى مبدأ التوحيد وأكد عليه في أكثر من معرض، مبينا خلالها أن أي تعدد في ربوبية الكون وقيادته سيفضي حتما إلى عبث وفساد كبيرين قال تعالى : ((لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ)) [2]

إن النص القرآني صريح في معارضة الشرك بالاستناد إلى انتفاء الفساد، وانتشار مظاهر النظام والتناسق بين طيات الكون الشاهد على مظاهر العناية واللطف الإلهيين، هذا بالإضافة إلى تنبيهه تعالى للمسلك العقلي في إثبات الإيمانيات والعقائد وهو البرهان، فقد طالب المشركين بالإتيان به وهو إشارة منه تعالى إلى أنه لا مسلك الحس ولا حجة العقل تعضد الاعتقاد بالشرك والقول به، وقد جاء هذا المعنى بشكل أوضح لقوله تعالى : ((مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن

1 - أبو سليمان ، الرؤية ... ، ص 24.

2 - الأنبياء، آية : (22- 24).

وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ))[1] .

إن النص القرآني يطرح أمامنا نتيجتين لازمتين لتعدد الآلهة في الكون هما :

أ/ استقلال كل إله بما يخلق : وهذا يعني انفراط عقد النظام والتناسق في الكون، وانفصال وحداته تبعا لتعدد الإرادات والاختصاصات، حيث يختص إله المطر بحوزته ويختص إله الرياح بمنطقة نفوذه تماما مثلما هو قائم في الوثنيات الإغريقية، التي أولت كل إله بمظهر من مظاهر الكون.

ب / تنازع الآلهة وتعاليها بعضها على البعض : لأن العلو من صميم معاني الألوهية التي لا تليق بغيرها فقد صار من غير المعقول أن يحوز هذه الصفة إله يعلوه إله آخر، كما أن كل مظاهر التنسيق والتنظيم السائدة في الكون تشهد بعدم معقولية تعدد علو الذات الإلهية[2] .

فالآيات الكونية موضوعها أو طريق الاستدلال بها على وجود الخالق وتوحيده هي الظواهر الكونية التي يعاينها الإنسان وتحيط به ويحيط بها إحاطة مشاركة وانفعال لصلته الكبيرة بالكون وخالقه، الذي أراد له أن يكون جزء من مظاهر الوجود ولصيقا مشدودا إلى الكون برباطات معرفية وثيقة تتجلى فيها عظمة الخالق ووحدانيته.

فحتى العبادات والأحكام الشرعية قد استوعبتها الظواهر الكونية وربطت بينها وبين الكون، فالصلوات في مواقيتها وأدائها وقضاءها تحتكم إلى

---

1 - المؤمنون، آية : (91).

2 - عبد الباري محمد داوود، دراسات فلسفية وإسلامية في الآيات الكونية، (دار الآفاق العربية، القاهرة- مصر، ط1، 1419هـ 1999 م .) ص 99.

الصلة بالكون من شروق وغروب، فالزكاة وحولها ونصابها، والصيام وميقاتيه كلها [1] تستند إلى شواهد ومواقيت كونية تبرز متانة الصلة بين الكون والإنسان من جهة، وبخالقهما من جهة ثانية.

4- مبادئ القراءة الكونية التوحيدية :

لقد قلنا إن التوحيد لازمة أساسية للقراءة الكونية السليمة التي تتعامل مع آثار الحق أمام أنظار الخلق، لكن ما هي مبادئ تحصيل هذه الصفة الإلهية التي تنبني عليها عقيدة الإسلام أو التوحيد، والتي تفترق بها عن بقية الرسالات المحرفة سابقا، إن الدين عند الله واحد.

في الحقيقة إن أول خطوة للإجابة عن هذا السؤال تستوجب منا توضيح طبيعة تلك المبادئ وهي ما يسمى بالدليل الكوني، الذي يعد من أكثر الأدلة اشتهارا على ألسنة العلماء وأكثرها شيوعا عند عامة الناس، وهو يعنى النظر إلى الكون بقصد الصعود إلى إثبات خالق واحد، ويطلق على هذا النظر مصطلح الدليل الكوني وهذا الدليل في جملته يقوم على أن كل مظاهر الكون يعتريها الضعف والتغيير لذا كانت محتاجة إلى مدبر محدث [2] .والقرآن الكريم به تحفيز للعقل إلى النظر في آفاق الكون واستقراء جزئياته لتلمس شواهد الوحدة والكمال.

بعد هذا الكلام يكون من الضرورة بحال تقديم مبادئ القراءة الكونية التوحيدية وهي :

---

1 - المرجع نفسه، دراسات... ، ص 61.

2 - طه الدسوقي، عقيدتنا وصلتها بالكون والإنسان والحياة، (دار الهدى، مصر، ط1، 1405 هـ - 1984م)، 149.

أولا : تحرير الإنسان من العبودية والعدوان لقوى الكون : يظهر التاريخ البشري أن علاقة الإنسان بالكون تراوحت بين العبودية والعدوان، فتارة نراه كالطفل الخائف من كل قوى الكون، يتوجس منها خيفة ويرجو من شواهده وقواه الحماية، فيبسط لها كل فروض الولاء والعبودية مثلما هو حاصل لدى عبدة الكواكب، وتارة أخرى نراه يقف من هذه القوى موقف المقاومة والمكافحة مريدا الانتصار والتغلب عليها[1] ، غير أن القرآن الكريم قد أوضح أن الكون بكل مظاهره هو محل للإعمار والخلافة من طرف الإنسان، لذا فقد أودع الله عزوجل بمظاهر الكون كل دلائل الوحدانية والقدرة طالبا من البشر التحرر من عبودية الكون وقواه وعبادة الخالق الواحد قال تعالى : ((وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)).[2]

ثانيا : خضوع الكون لسنن إلهية جارية : يؤكد هذا المبدأ على أن كل حوادث الكون وتحركات الشموس والنجوم والأفلاك إنما تجري وفق سنن ثابتة وخطة رتبها الله الواحد القادر، ثم إن استمرار الليل والنهار بدوران الأرض حول نفسها وبقاء الشمس متوهجة وتماسك السماء وتألق النجوم، كل هذا لا يمكن أن يستمر بدون قوة واعية لا تستمد قوتها من غيرها، بل هي فاعلة من ذاتها لأنها من لدن واحد حكيم تشهد أفعاله على وحدانيته واستغناءه عن الاستمداد من الغير [3] قال تعالى : ((وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ

---

1 - عبد الباري داوود، دراسات ...، ص 87

2 - فصلت ، الآية : (37).

3 - طه الدسوقي، عقيدتنا...، ص 117، وعبد الباري داوود، دراسات ...، ص ص 96، 79

كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)) [1].

فهو تعالى خالق للكائنات مدبر للحوادث وكل ما يجري في ملكه هو وفق أمره وسننه لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر وفلتة خاطر لأنه الواحد الفعال لما يريد.

ثالثا: الكون مخلوق لهدف وغاية وهو مسخر للإنسان: يعتبر التوحيد أهم مرتكزات القراءة الكونية الدينية لأنه الإجابة الفطرية للبعد الروحي الإنساني، في فهم أبعاد الحياة والوجود ولذا فقد جعل هذا الكون الفسيح، أحسن مجال للتعبير عن حسن هذه الفطرة وفعاليتها من خلال مبدأ تسخير الكون لقدرات الإنسان الروحية والعقلية قال تعالى: ((وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) [2] .

إنها تربية قرآنية وتحفيز إلهي لفهم نوامس الكون وأسراره بغية التصرف في عالمه، والحصول على حاجته واستثمار كل خيراته، من غير طغيان ولا استبداد وهو الأمر الذي يحمل في طياته معنى التكريم الذي أولاه الله عز وجل للإنسان، لأنه صاحب مهمة استخلاف بكل ما يتبع ذلك من مسؤولية الإنسان الإعمارية وحريته تجاه قرارته وتحقيق ذاته بالتزام قيم الحق والعدل، وإقصاء كل ما يفرغ الفعل الإعماري من معانيه وأبعاده 3 قال الله تعالى عز وجل: ((إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)) [4].

---

1 - يس، آية : (37-40)

2 - الدخان، آية (38-39).

3 - أبو سليمان، الرؤية ...، ص 104 ، وعبد الباري داوود، دراسات .... ص 92، 94

4 - الإنسان، آية : (3).

ووجه الشكر هنا هو تحقيق العبودية على مقتضى التوحيد وفعاليته في النشاطات الإعمارية، وقيمها الأخلاقية تجاه الأفراد والكون ذاته باحترام بيئته وعلاقاته بها في إطار الاستخلاف والتكريم دائما.

5 – علاقة التوحيد بوحدة المخلوقات:ثمة أمر ينبغي توضيحه وهو أيكون الكون بكل موجوداته الطبيعية المكانية والزمانية يتمتع بلون من الوحدة من خلال توحيد الله عز وجل وهذا يعني أن العالم في مجمله وحدة مترابطة؟ وهل يحمل هذا الترابط على المنحى الميكانيكي الآلي أم هو ترابط عضوي ترتبط فيه أجزاء الطبيعة مثل ارتباط أعضاء الجسم؟ .

لقد عالج الفلاسفة المسلمون مبدأ التوحيد من خلال النظر الكوني ليصل في الأخير إلى إحكام الربط بين أقسامه على وجه العضوية ومنهم إخوان الصّفا [1] ، الذين اعتبروا الوحدانية صفة أكيدة في بناءهم العقدي لأنها تنبني على أهم أساس معرفي وهو العدد :(وأعلم يأخي أيد الله بروح منه بأنك إذا ما تأملت ما ذكرناه من تركيب العدد من الواحد الذي قبل الاثنين ونشوئه منه وجدته من أدل الدليل على وحدانية الباري جل ثناؤه)[2].

وبيان دلالة الواحد على ثبوت الوحدانية لله، تكمن في اعتبارهم أن العدد متى بطل منه الواحد فسد نظامه وتعطل أقسامه، لأنه أصل العدد ومنشأه،

---

1 – هم إخوان الصفا وخلان الوفا، جماعة فلسفية سرية ظهرت في نهاية القرن الأول الهجري بسلمية (سوريا) وهم من الشيعة الإسماعيلية التي عملت على التوفيق بين الحكمة والشريعة. لحلح الزهرة، الآراء العقدية في فلسفة إخوان الصّفا، (رسالة ماجستير كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، 1999م–2000م)، أنظر الفصل الأول.

2 – رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، (موفم للنشر، الجزائر، د.ط، 1992م)، جزء 3، ص 73.

وكذلك فإن ما أنكر الواحد الحق فلا ثبات له ولا عمل لأنه قطع نفسه عن خالق الموجودات وأصلها، والعلة في هذه المقابلة بين الواحد من العدد والمولى عز وجل ترجع لكونهم يعتبرون نسبة الباري تعالى من الموجودات كنسبة الواحد من العدد[1].

ثم يعمد إخوان الصفا إلى نوع من التفسير الشامل للعالم، مبناه التناظر الكائن بين العالم باعتباره "إنسانا كبيرا" وبين الإنسان باعتباره "عالما صغيرا"، لما هو كائن بينهما من مقاربات شديدة، جعلت من الإنسان الكائن الوحيد الأتم صورة، والأشد شبها بجملة العالم الذي يحتويه، وعليه فإن نظرية المشابهة أو المقابلة بين الإنسان والعالم، تقوم أساسا على إظهار وحدة الطبيعة وجمال العلاقة بين العالم الكبير والعالم الصغير، ومن تم توضيح العلاقات الداخلية بين الإنسان والطبيعة، حيث يكون العالم بمجموعه عبارة عن كائن عضوي حي، يماثل في عضويته وحياته أجزاء الجسم العضوي للإنسان، بكل مظاهر الحياة التي تدب في أوصاله، وكل ما يحيط به من شؤون حياته، وهذا لما يحقق من صور توافقية يتناغم فيها كل من العالم والإنسان، لإظهار وحدة لانشوز فيها باعتبارها صنع الواحد الخالق، ومن ثم الوصول إلى الإعلاء من قيمة هذا العالم الصغير أي الإنسان. ويعود تاريخ هذا المفهوم للعلاقة الكائنة بين العالم والإنسان إلى القرن الخامس قبل الميلاد، أين أمكن العثور على صور هذه المشابهة ضمن الفلسفة الإيرانية المتعلقة بالمفاهيم العقلانية، والتي تؤكد على إبراز العلاقات الباطنية بين وحدات الطبيعة[2].

---

1 - لحلح، الآراء العقدية ...ص 140 .

2 - سيد حسين النصر، مقدمة إلى العقائد الكونية الإسلامية، ترجمة : سيف الدين القصير،(دار الحوار للنشر، اللاذقية – سوريا، ط1، 1991م)، ص ص 52، 53 وعبد اللطيف العبد،

هكذا يبدو التوحيد مرتكزا أساسيا للقراءة الكونية، سواء أحلقت تلك القراءة في أفق العلم أو الفلسفة أو الدين، لأنه الاستجابة الفطرية للتفكير الكوني الإنساني.

دراسات في الفلسفة الإسلامية، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة – مصر، د.ط، 1399هـ – 1979 م)، ص 223.